مفتاح الأقفال

قصة بقلم مطاع صفدي

(الى صديقي أجير الحداد ..
مازال يبحث عن مفتاح الأبواب الموصدة.)

وتجرع صالح دفعة أخرى من العرق الخالص .

من أسفل يرى الى العالم ، ويتفوق عليه كأعلى نجم في سمائه . والأقدام تخبط إزاء رأسه . وأصداء الأسفلت أقرب الى أذنيه . وظلال الظلام تنسكب من هذا الثقب الكبير ، من نافذة القبو . ويتكثف الشارع كله ، وينزلق اليه ، بغباره وديجوره ، وخطوات العابرين ، وزحاف الأضواء الهرمة ، من المصابيح الهرمة ، ويتلقاه هو . مفتوح العينين ، مشدود القامة على كرسي ، غير مستقر ، مشعث الشعر ، حلت أزرار قميصه .

وراعه أنه وحيد حقاً ، وأن الليل يمكن أن يكون صامتاً الى هذه الدرجة من الرعب الأخرس .

وتمنى صالح لو أن المعمل انتقل بمطارقه ومكابسه وحديده ، وصخبه الأكبر الى أخدوده هذا في أسفل الطريق ، وضج كله دفعة واحدة في سمفونيته التي لن تنتهي ، من عزيف الأضطهاد والحديد ، والأنسان الذي يضرب لحمه ، اثر كل طرقة لقطعة من الحديد المحمر ...

وارتشف رشفة محرقة ..

هذه الليلة ؛ من الليالي النادرة التي يلتقي فيها صالح مع نفسه ، ويخلص من مراقبة الآخرين ، ومن العيون الشامتة الصاغرة ، والهمسات المبحوحة بخبثها وحقارتها . إن اخدوده الآن أصبح ملكه . حتى امه الكئيبة واخواته الثلاث البليدات ، وكذلك أبوه ، حتى هؤلاء قد رحلوا جميعاً في سفرة الى بيروت وتركوا الأخدود لوحشته وانتصر صالح على وحشة البيت تحت الأرض ، بوحشة له أكبر ، وحشة انتصابه هكذا على كرسي غير مستقر ، وبقميص مفتوح ، وشعر أشعث ، وبيد تعبث كل لحظة خلال درج الطاولة الخشبية ، المستعملة لكل شيء ، وتخرج بين الفينة والأخرى زجاجة العرق ، بعصبية مرتجفة . وينفتح الفم المتشقق ، ويغب دفعتين أو ثلاثاً . وتسد الزجاجة او تعاد الى درج الطاولة ، بالعصبية نفسها ، منفذاً عادة قديمة ، عندما يكون القبو عاجاً بزواحفه ويخشى هو أن يدفع أحدهم الباب ويرى الى زجاجته ...

هذه الليلة وحدها ، لايخدش سكونه الغطيط ، والفحيح من الأفواه المفتوحة لهوائم ليالي الصيف المحرقة ، في الأحياء الحلزونية الدهليزية ، من دمشق المبهمة ...

ويتجرع صالح عرقه بمزيد من التحرق يتشهى اللهيب . وكان هو بين نار في رأسه ، متوهجة من جبينه ببضع أفكار ، ومن أذنيه بصدى لضجات الطرقات ، ومن خدوده التي طالما لفحها الحديد المحمي ، وبين نار في جوفه يلهبها عرق لم يمازجه ماء ، ولم تخفف من لسعته نتف المازة ...

لقد تملك إذن من ليلته ، فلن ينام ، كما كان يفعل دائماً ، منذ العشاء حتى السادسة صباحاً . ولن تستطيع أن توقظه صفارة المعمل ، التي تدوي في لاشعوره ، ولو نفخت في بيته لصق أذنه . إن زعيقها لغيره ابتداء من صباح اليوم التالي . وامتلك كذلك أخدوده . فليس هو فراشاً لينام مائتين ، إلا من غطيط بشع . ولن تستيقظ أمه بين ساعة وأخرى ، وتطلب منه أن ينام ويطفئ الكهرباء ، قبل أن يصرف العداد كمية أكبر من الطاقة .

ومن قبل ، منذ ساعات ، منذ أن كان النهار ساطعاً ، وكان المعمل في صخبه الأعنف ، وفي ذروة التهابه في الفرن الحديدي ، واحتدامه بالطرق والصب والكبس ، وتحرك الأيدي المعروقة ، مجنونة السعي ، بين مختلف القطع الحديدية ، تجمعها وتضمها لبعضها ، وتطبقها ، لتخرج منها أقفالا .. منها الأبيض واللامع ، لأبواب القصور ، ومنها الأزرق المموج لأبواب أخرى . فلقد كان لكل باب في المدينة قفل . وكان لكل بيت أن يغلق أبوابه دون العالم ، وأن يجتر في الداخل وجوده المعلب الصامت ، بحيث لا يسمع شيئاً ، وإن كان له ، هو ، أن يوجد كالدهليز بين كوم البيوت المهندسة جيداً ، بحيث تترك داخلها تجويفات ، لكائنات ما ، من نوع غريب ..

منذ أن كان المعمل ، في ذروة صراعه بين الأنسان والحديد ، والطرق ، والهوس المجنون ، بتركيب الأقفال عدداً أكثر فأكثر ، يناسبه تضاعف بالأجرة ، منذ ذلك ، في النهار الذي تلاشى الآن ، امتلك صالح نفسه ، كما لم يمتلكها من قبل .

والحق ، أن كل حادث ، كان يقع في يوميات المعمل ، وكل منظر فيه ، كان صالح يتلقاه على حواسه بنوع من الطرق ، كأنه ضربات من نوع آخر . وهو الآن ، إذ يتشكل بخار الرق في رأسه ، ضمن بعض صور من المعمل ، بعض وجوه من المعمل ، بعض وقائع من المعمل ، فانما يحس على جمجمته طرقاً ، ولكنه طرق من داخل هذه المرة . إن المعمل يضج ضجته داخل جمجمته . ويزوغ بصره كالعادة ، عندما تصبح مناظر المعمل عبارة عن حركات سريعة مجنونة ، لا حد لسرعتها وزيفها . وتنتثر ، على المنبر الخشبي السميك الممزق ، قطع الحديد .. قطعه التي يستطيع جيداً أن يميز بينها ، رغم أنها قد خرطت فصائلها ، بشكل واحد ، ولون واحد ، وبريق واحد . ومع هذا فان صالح كان يحس بوجود كل قطعة . وكان احياناً يرتبك تجاهها ، فلا يقدر ان يطبقها ضمن صفيحة القفل . وكأنه بذلك يثق أكثر ، أنه لابد من وجود اختلاف معين ، بين القطعة والأخرى ، حتى يمكنه أن يقول عنها ، أن بعضها عنيد ، وبعضها مشاكس ، كما يوجد كذلك بينها المطاوع والسهل ، وبالتالي الخاضع الحقير ، لدقة انامله ، وحذاقتها المدربة ، كما يخضع هو لحذاقة صاحب المعمل ، حذاقة كادت تكون غباوة ، لو لم تأخذ زكوتها من بريق الذهب ، ومناجمه ومعاملاته ..

نعم ! إن نظرة الحداد – ابي خالد – صاحب المعمل ، لصالح ، ولأحمد وعباس ، والآخرين جميعاً ، المهووسين بتسجيل عدد أكثر من الأقفال ، لترتفع أجورهم .. نظرته لكل واحد منهم ، تشبه معدناً حساساً بالبريق. إن عينيه تلتمعان ببريق العملة ، التي يراها في هذه الآلات الآدمية ، وهي تصنع له أقفالا بعد أقفال ، لشقات في عمارات ، تنبت بعد عمارات ، كأن الأرض بدمشق تعاني ربيعاً دائماً . ولكنه ربيع من الأحجار ، المجوفة من داخل . لكائنات من نوع غريب ...

إن المعمل مقسم لنوعين من الناس ، كل له هوايته . فزملاء صالح ، العمال ، هوايتهم إنتاج اكبر عدد من الأقفال ، خلال ساعات العمل . وأبو خالد هوايته إشادة أكبر عدد من الشقات ، في طوابق لعمارات متعددة . يستعمل لأبوابها جزءاً من أقفال . وربما كان الجزء الأردأ . ولم ؟ ! فان هذه الشقات معدة للتجارة ، للبيع ، ككل شيء في حياة ابي خالد . إن احداً لا يعلم كيف بدأ ابو خالد ، الا صالح قريبه ، ابن أخته . ويلخص صالح بداية خاله بقوله : « لقد كان حداداً بسوق الحدادين ، يصنع أقفال البساتين ، والغلالات الكبيرة ، للبوابات القديمة ، ونعول الدواب . وأثناء الحرب ، عندما أخذت هستيريا البناء تعم أثرياء الحرب ، ارتفعت صناعة ابي خالد . ولم يكن ثمة استيراد لبضاعته . وعند نهاية الحرب ، استورد معملا صغيراً كاملا ، لصناعة أنواع الاقفال المختلفة . ولم يكتف بذلك ، وإنما أصبح له أيضاً هوس بتلك الأبواب التي يغلقها بأقفاله عن الشقات الصغيرة المترفة . هذه الشقات التي تباع ولما يقم في هيكلها حجر واحد ، إلا خطوطاً على خريطة المهندس .

وتجرع صالح دفعة أخرى من العرق الخالص . ورمق النافذة العالية ، المحاذية لرصيف الشارع الأنيق . ومن هناك ، صعد بنظرة الى أعلى ، ملتفة على نفسها ، الى الطابق الأول . وتلاشت النظرة أمام الباب (المقفول) ...

وراء الباب ، كان ثمة كائنات من نوع غريب .. خاله أبو خالد وعائلته . كان ذاك بيتهم ..

وصالح ، وأهله ، يسكنون في الأسفل ، في قبو البناية . لقد منحهم خالهم مسكناً من غرفتين . واشتغلت أخوات صالح خادمات في بيت الخال . واشتغل هو عاملا في مصنع الأقفال . وسارت الحياة على ما يرام ، الا من هذه النزعة العجيبة ، في سلوك صالح ، أن يشرب العرق الخالص لوحده .. في تجويف من التجويفين ، من القبو ، خاصة كلما سافرت العائلة الى بيروت ، عند الخال الآخر ، الذي يمنح عائلة أخته بضعة أيام من الراحة والحرية والكرامة والمعونة المادية المحدودة ، مرات عديدة خلال السنة .

وارتشف صالح الرشفة الأخيرة من العرق الخالص . ولم يعد له مايصنعه . فقام وخرج الى الشارع . واستقبل صمت ما بعد منتصف الليل ، ونسمة باردة شريدة ، وامتداداً لا نهائياً من الأسفلت اللامع ، تحت خطين طويلين من أضواء شارع (بغداد) الفضية النوز .. الحديثة .

* * *

أيكون إذن ، قد استطاع الآن ، الانفلات من ذلك الثقل الهائل الأبكم ، الذي كان يرزح تحته ، ثقل البناية الشاهقة ، وهو في اسفلها ، في جذورها ، كأي حجر ضائع بين أحجار الأساس ، لا أحد يحس بخطره ، وإن كانت البناية بطوابقها الخمسة ، وشقاتها العشرين ، تقوم عليه ، وعلى أحجار أخرى مثله .

وإن صالحاً يجب أن ينطلق هكذا في الطرقات ، التي تفسح دائماً المجال أمام عابريها لأن يتجاوزوا كل نهاية . فهي ما أن تبدو في أقصاها تلك النقط المظلمة الفقيرة من كل بعد وحجم ، حتى تتراجع أمام السائر الى نقطة وراءها أبعد منها .. ويظل هكذا صالح يسير ليدفع أمامه بكل نقطة نهاية سوداء محتملة .

وإذا كان قد انفلت من ثقل البناية ، ذات الطوابق الخمسة ، فانما هو قد اعتاد منذ القديم على الانفلات من أساس كل بناء آخر ، يجثم على صدره من قاعدة كل هرم ، يشكل فيه هو لبنة من لبناته ..

ولكن كان لابدّ لكل انسان في المدينة من أن يكون له بيت في بناية ما يسكن فيه ، ومن ان يكون له درب الى هذا البيت ، ومن ان يكون له اسم وهوية يعرف بها .. وصنف من المجتمع يصنف اليه ..

ومرة وجد صالح نفسه أنه أضعف من أن يبقى لمفرده ، فاستجاب لدعوة بعض أصدقائه (المصنفين) . وأصبح بين عشية وضحاها لبنة في قاعدة هرم رابض مخيف . .

ولكنه ، وهو في غمرة نشاطه النضالي العنيد ، لم تفارقه وحدته القديمة ، بل إنه زاد شعوراً بفداحة وحدته . وفي الوقت الذي كان يأمل فيه أن يتبنى (الصنف) مشكلته هو وأن يعمل على حلها له ، أدرك أن الصنف يلزمه هو على تبني مشكلته ، ويمحو وجوده هكذا ، بأمر يصدر دائماً مع كل نشرة سرية جديدة .. أوامر تهتم فقط بشعارات ، تتبدل بين حين وآخر ، تبدلا يجعلها هي نفسها دون شخصية واضحة . وما على صالح ورفاقه إلا أن يجدوا التبرير تلو التبرير ، وأن يردوا اقوالا ونداءات ، لايحسون فيها أي حرارة تربطها بحياتهم مباشرة ..

ولكن صالح كان دائماً رجلا عنيداً ، فاندفع في طريقه الجديد الى أقصاه . وكان قاسياً في تنفيذه لواجباته . وما استكان لأي هوادة ، في الوقت الذي كان صنفه مسبة ولعنة يقاومه كل الناس ، فضلا عن السلطات ..

وكان عليه آنذاك ألا يكون انعزالياً عن زملائه في المعمل وكان يسلك

صدر اليوم

القسم الرابع من

معجزة كارل ماركس العلمية

رأس المال

أول طبعة حرفية كاملة

- موسوعة اقتصادية تاريخية عامية شاملة .
- الأبحاث التي اكتشف فيها كارل ماركس قانون تطور المجتمع .
- آلاف الكتب العلمية معروضة في ثنايا « رأس المال » مع تحليلها ونقدها .
- أساس الاشتراكية العلمية ، الوضوح ، الشمول ، العمق ميزات هذا الأصل الخالد .

منشورات مكتبة المعارف في بيروت

الثمن ٣٠٠ ق. ل.

جميع الوسائل التي تجعله قريباً من نفوسهم . ومع ذلك فقد كانوا يكتفون، بحدثهم الطبيعي، اصطناع صداقته لهم ، واحتقاره الخفي لهم . ولم يكن منهم إلا أن أضافوا صفة أخرى الى جانب صفته الأولى وهي المثقف ، أو كما يلفظونها متندرين (المسكف) . !

وما طال به الزمن ، حتى راح صالح يحور من الأوامر ، ويتصرف في دعوته الخفية للمنظمة ضمن اساليب خاصة يبتكرها بناء على نظرة شخصية أخذ يكونها عن طبيعة النضال بين الكادحين . وكان يفشل مرة وينجح مرة اخرى. وبين الفشل والنجاح ، تتضح له أكثر فأكثر طبيعة تلك العقيدة ، التي كان يشعر بالحرج كلما حاول أن يقسر الواقع الحي على الانسجام معها ، وليس العكس.

وانهال عليه اللوم ، تلو اللوم ، الى حد الإهانة . ثم عوقب بالشك ، وعوقب أكثر فأبعد عنه كل صديق .. وهو في ذلك كان كمن يشمت بنفسه ، وكمن تتفجر فيه طاقة من الوعي الذاتي ، لإدراك معنى أن يكون ، ومعنى أن تكون له صفة تلصق به من خارج ، ولا تنبع عن اعماقه .. وأفشوا أمره عند السلطة .

وغاص صالح هكذا في سديم الشارع الموحش ، ونظر حوله . ترى كيف يمكن للرصيفين أن يغطيها سواد من الناس ، اثناء النهار ، في حركة تيارين متعاكسين ، وكيف تزدحم وحوش القرن العشرين .. هذه السيارات الضاجة وتنفث دخانها ، أو تتصارع حجومها ، على هذا الأسفلت ، الذي يبدو الآن وكأنه أطرى من أن تدوسه قوائم عصفور . ثم يتلاشى كل ذلك السواد وتختفي كل تلك الآلات الكبيرة . ويصبح الشارع هكذا ملكاً له وحده ، بعد أن كان يحس إحساساً مرضياً في لحظات الصباح الباكر ، وهو ذاهب الى عمله ، أن الألوف من الأقدام الأخرى ، تقاسمه حتى النقطة التي يدوس فوقها ، أو التي يقف عليها وهو ينتظر الأوتوبيس .

كان يومه دائماً سلسلة من الازدحام الخانق ، يتطور مع ساعات النهار ، من شكل الى آخر . ولكنه يبقى هو ذلك الانضغاط المرصوص ، والتلاطم القذر والضياع في سديم الآخرين ، وتجانس الكتلة : ازدحام أول في قبوه حول المغسلة في اللحظة الباكرة من النهار . وازدحام حول طبق القش لتناول الخبز والشاي . وازدحام في الرصيف ، وعند موقف الباص ، وداخل الباص .. وأخيراً ازدحام شاق طويل ، بين الحديد والطرقات ، الأيدي الهاوية والبشر المهووسين في المعمل الجحيم ...

وعاد الثقل كله يجثم على كاهل صالح ، رغم أنه في الشارع وحده . لقد كانت ثمة ثغرة كبيرة ، في هذا النظام المزدحم المرصوص ، الذي يمتص وجوده ووجود الألوف الآخرين ، من الذين يدهسهم الأزدحام ، ويختنقون فيه دون أن نسمع فيه حتى الصرخة الأخيرة ، لحياتهم ، وقد سحقها الموت التعب. بين الأقدام ، والثياب السميكة ، وضجة السعي وراء العيش .. أو وراء الكرامة .. وليس هما معاً .. معاً أبداً ..

ولكن كيف لهذه الثغرة الضائعة أن تطلعه على قعرها الأسود ، وهو المأخوذ الى درجة الدوار ، في دوامة النظام : ان يستيقظ في السادسة ، وأن يخرج من البيت في السادسة والنصف ، وأن ينتظر مكاناً له في باص ، خلال نصف ساعة ، وأن يصل المعمل حوالي السابعة ، وأن يبدأ لتوه بالطرق ، وجمع قطع الأقفال وتركيبها هكذا حتى الساعة الثانية عشرة ، ثم يأكل ، ويثرثر مع الزملاء المنهكين ، المستلقين على الأرض العادية خارج المعمل ينظرون الى السماء ببلادة ، ويحركون أفواههم بين لفظ وآخر كما لو أنهم لا يقولون شيئاً البتة .. ويرتاح ساعة ، ويعود الى العمل حتى الرابعة والنصف . ويقفز مباشرة الى البيت ليصل حوالي الخامسة ، وعندئذ تبدأ حريته لساعة واحدة فقط ، عندما يدير مفتاح المذياع ويستمع الى ستين دقيقة من الموسيقى الكلاسيكة من دمشق ..

. ويرتبك بعد انتهاء الموسيقى . ويتمطى سؤال الفراغ في وجوده: ماذا سأفعل الآن . !

والواقع أنه لم يكن في حياته سوى ساعة الموسيقى الكلاسيكية هذه ، وبضعة كتب روائية شعبية ، وسؤال كحيوان هائل خائر : ماذا سأفعل الآن ؟ .

ومرة لم يجد جواباً على هذا الإحراج الكبير تلقاء مسؤولية لا يعرف كنهها ، سوى أن يقذف بنفسه .. اليهم ، أولئك الذين كانوا يعدونه بعمل كبير ومسؤولية خطيرة .. وقضية انسانية رائعة ..

وأما الآن فقد أصبحت الموسيقى الكلاسيكية في ساعة المساء ، وقراءة بعض الكتب ومشاريع التوفير لشراء (الأخوة كرامازوف) ، مشكلته بينه وبين هواجسه ، وبينه وبين زملائه في المعمل ، الذين يخشونه فيصفونه بلقب (المسكف) . وبينه وبين خاله الكبير ، صاحب المعمل الذي تحيره في صالح نظرات التمرد والإستخفاف ، وبينه وبين أسرته التي يرفض أن يمنحها كامل أجرته ، ويأبى إلا أن يبقي معه أكثر من الربع ، وأحياناً النصف ، ليشتري كما تقول أمه ساخرة : عرق (الأشقياء) ، وكتب أولاد المدرسة وأكوام الصحف ، وليرتاد سينما الأكابر ومقاهيهم ..!

ومع ذلك فقد كانت له (ثغرته) . ومنها كان يأمل ، في كوابيس أحلامه المرعبة ، أن ينزلق بحركة ما ليجد نفسه فجأة خارج .. خارج كل شيء ، بدون معمل ، بدون خال ، بدون أسرة ، بدون صفارة عند الصباح ، وصفارتين عند الظهر ، وأخرى عند المساء .. دون صنف وقضية خطيرة . . !

وإنه ليذكر قولا لأحد زملائه المقربين منه ، في أزمة من تلك الأزمات التي كانت تشتد فيها سخرية العمال من المثقف ، ويشتد هو في تحديه لهم . فقال لصالح وكأنه وجد حل الأزمة :

– لماذا لا تكون مثلنا يا صالح ؟.. لقد منحنا الله عملا لا بأس به ، في الوقت الذي لا يجد أخواننا لقمة العيش . ألا يكفيك أن تنال آخر النهار ست ليرات ، كأحسن موظف .. وأن تعمل ثماني ساعات ، وأن تمنح العطل الأسبوعية والسنوية ، وأن تعمل بقدر ما تريد ، وحسب مزاجك .. وفوق هذا إنك ابن أخت صاحب المحل ، وأنك تسكن في بنايته نفسها .. فلماذا تتعب نفسك بالحديث عن هؤلاء الموسيقيين أو الكتاب الافرنج ، الذين لا أعرف كيف ألفظ أسماءهم .. وتتحدث بالسياسة ، وترتاد سينما الأفلام الاوروبية ، ولا تذهب معنا الى صالات الافلام العربية.. أليس من السخف أن تشتري كتاباً بأجرة يوم أو يومين ؟ يبدو أن خبزك كثير يا صاحبي ! .

واشترك في الحديث أخو صاحب المعمل الأصغر . وهو طالب جامعي ، يزور المعمل زيارات عابرة . وكان يعير صالحاً أحياناً بعض الكتب . ويتحدث معه في بعض مواضيع المجتمع والأدب .. ويطيل معه الحديث أكثر من غيره . قال : – قلت لك يا صالح ألف مرة أنه يجب أن تنتسب إلى مدرسة ليلية كما يفعل الكثير من العمال الذين لم تتح لهم فرصة التعلم ، وهم صغار وأن تدرس الكفاءة .. وإني أراهن أنك ستفوز بها حتماً خلال عامين فقط ، وعندها تجد لنفسك طريقاً آخر .

ويعجب صالح الآن كيف أنه استمع الى مثل هذه الأقوال، عشرات المرات . ولم تكن تثير فيه إلا مجرد هز الرأس والاستخفاف . والحق أنه لم ينتبه إلى مغزى كلام خاله الصغير ، إلا في مرحلة متأخرة من رفقته المصطنعة له .

واليوم فقط انقلب إدراكه لهذا المغزى إلى ثورة، وإلى حركات عنف لم

يكن ليتنبأ بها من قبل . فقد اقترب منه وراح يحدثه، دون ما مقدمات ، عن استعداد الطلاب في الجامعة للفحص وعن جد الدراسة الهادئ في المكتبة ، وعن جو الترفيه في النادي ، والمناقشات في الفن والسياسة والفلسفة ، التي تجري في أوقات الاستراحة بينه وبين زملائه من الجامعيين والجامعيات . حتى لفظ أخيراً ، وبعد سرد تفاصيل لا حاجة لصالح بها مطلقاً ، حكمته المعهودة :

– لماذا لا تدرس في الليل لتفوز بالكفاءة .. يا صاحبي ؟ !

إن هذا الجامعي يحتقره ، ويحتقر عمله اليدوي . وهو لا يستطيع أن يبقى إلى جانبه ، وأن يدعم زياراته للمعمل ، إلا بالقدر الذي يسمح له أن يتزود بما يرضي غروره ، في معاناته للحظات ، عناصر الجحيم في المعمل . ودفعة واحدة وجد نفسه قد انقض عليه . وقبض بيديه القاسيتين على كتفي الجامعي النحيلتين ، وراح يهزه هزاً عنيفاً وهو يصرخ في وجهه :

– لا أريد دروسك ، لا أريد مدارسك ولا كتبك .. إنني أعظم منك ومن جامعتك وزملائك .. إنني أحتقركم جميعاً .. أحتقركم . وأربأ بأصغر عامل أن تكون له أنانيتكم وغروركم وتعقيدكم ..

وشلت المفاجأة قوى الجامعي . وقد سمع صراخ صالح كل من في المعمل الصغير ، رغم الضجة الشديدة . وتوقف الجميع عن العمل وهرعوا ليتحلقوا حول المتخاصمين ، ويستمعوا إلى صياح زميلهم ، وقد ظهر لهم فجأة ، كأنه بطل ، أرسلته العناية الالهية لكي ينتقم لهم بكلمات حاسمة ، من جميع أولئك الذين يصنعون لهم الأقفال ، ويغلقون بها أبوابهم في وجوههم ، وعن مأساتهم .

وتدخل الخال العتيد وخلص أخاه ، من قبضة صالح ، وانبرى موبخاً مهيناً :

– كفاك يا هذا شذوذاً وقلة أدب . لقد تحملنا منك ما لم نتحمله من أحد من زملائك هنا .. قل لي ما هذا الذي يدعوك بأن تشمخ بأنفك عالياً علينا ، هل هي ثروتك الطائلة ، أم عاراتك الشاهقة ، أم شهاداتك العالية .. أم ماذا ! أقراءة بضعة كتب ، والاستماع إلى موسيقى الضجيج والصراخ ، والتحدث في السياسة والهرطقة يجعلك امبراطوراً علينا ؟. لماذا لا تتلهى بعملك ، وتكسر يدك عن التطاول على من هو أعلم منك ، وأرفع شأناً من حقارتك ، وتوبخ ثياباً ، بيديك القذرتين ، لا تحلم بها طيلة حياتك .. كفانا ما تحملنا منك .. ومن أمك وأبيك وإخوتك .. هؤلاء الذين سكنوا بيوتنا ، وتغذوا وكبروا من مرقنا وخبزنا ..

ولم يحر أحد من (الزملاء) حرفاً ، وتقهقر كل إلى عمله ، وخرج صالح من المعمل بثيابه الزرقاء تحت إبطه ، بذلته وحاجياته . خرج عدواً ، وانطلق الى بيته . وهناك استقبلت بطالته الأسرة الجائعة الكئيبة : أم لاتعرف كيف تنتسب الى أخوة أثرياء مترفين ، أو الى زوج وولد معدمين والى بنات جاهلات ، خادمات في بيت أخيها ..

* * *

ولفحت وجه صالح هبة باردة ، ابرد من هبات أخرى سبقتها . ولكنه كان لايزال يمشي مضطرب الخطى ، مفتوح القميص ، ملتهب الوجنتين ، مشعث الشعر ..

ألم يجد اخيراً الثغرة ، ثغرته الضائعة في قلب النظام ؟ ألم ينزلق منها ويلق نفسه خارج .. خارج كل شيء ، حيث الأرض البكر ، والساحة المطلقة الفسيحة التي لم يشق فيه درب ، ولا قام فيها بناء ، قفلت ابوابه .

وبرزت الى مخيلته المستعرة صورة الوجوه ، وجوه الزملاء الشامتين ، الذين لم يعودوا زملاء البتة ، ولم يعد هو منهم ، منذ زمن طويل . وتبرز كذلك صور الوجوه الأخرى ، التي أطلت من خلال وجه الجامعي . انها ترفضه ، كما رفضه من قبل الزملاء ، وإنها تتقذر منه .. تنعقد ملامحها كلها ضمن تعبير واحد ، من مشتقات الازورار والازدراء .. والتعالي .. الا من هؤلاء الذين تصبح عندهم هواية (الشعبية) ، التغني بالملايين ، او تحريض العمال والفلاحين ، وكتابة القصص والأشعار عنهم. وإذا ما شاهد واحد منهم أحد هؤلاء الذين تحدث معهم ليلة أمس ، شاهده في المكان غير اللائق ، حول نظره عنه الى مرئيات أخرى ، أكثر انسجاماً مع هذا المكان .

* * *

وصفعته وحدته . وطرب لهذه النبرة الداخلية الغنية ، التي تترجع اصداؤها داخل فراغ نفسه .. نبرة أن يكون وحيداً ، وأن يكون بدون فكرة وبدون أثر في الأرض التي يدوس عليها .

واندفع خلاله شعور عاصف لأن يثور ، وأن يصرخ مرة أخرى ، وأن يقبض بيديه على قامة ثانية ، على قامة عملاقة تستغرق كل القامات القزمة ويهزها ، ويهزها ، ويصيح في وجهها :

– أنا لست من هؤلاء ، ولست من هؤلاء . أنا لااريد أن أكون مجرد عامل ، ولا مجرد مثقف .. لا اريد طبقة ، لست جزءاً من جزء ، ولا حجراً في بناء .. أريد أن تفتح الأبواب كلها . أن يخرج الناس كلهم من جحورهم ، ومخابئهم ، وأن يندفعوا هكذا في الشارع الطويل الواحد ، دون أن يدهس بعضهم بعضا ، ودون أن يختنق منهم أحد في زحامهم .. أريد أن ألقى مكاناً بينهم ، ككل الأمكنة الأخرى .. أريد أن أضمهم جميعاً بصدري ، أن أحبهم كلهم وأن يحبوني .. يحبوني ..

ولكن هل هذا الحب ؟ هل هذه التسوية هي كل ما يقلق هذا الأنسان ، وهو يتأرجح على رصيف الشارع ، وقد قارب الوقت بشائر الفجر ؟ انه لم يزل واقفاً عند بابه ، يعالج قفلا مستعصياً صدئاً ، صنعه هو من قديم ، ولم يعد يعرف كيف يفتح ، وما هو مفتاحه حقاً ..

لقد حاول مرة أن يتغلب على هذا السديم الذي يميع فيه وجوده ، ويفقد كل شكل وحدوده . فحشر ذاته بصنف من أصناف البشر في بلده – وما اكثرهم – وأخذ يفسر الأمور من منطق هذا الصنف ، وارتاح هكذا زمناً طويلا لرأس الصنف يفكر عوضاً عن رأسه ، ولإرادته تقرر عوضاً عن إرادته هو ، ولتعاليمه ، من وراء البحار والقارات، تعطيه طمأنينته. واستكان الى ذلك التوافق التام في فكر الكل ، وعمل الكل ، وحركة الكل ..

وزاد تأرجح صالح ، وشعر بعسر في معدته . واندفع القيء الى دماغه .. إنه بحاجة الى أن يخرج تلك القذارات من معدته ، كما هو بحاجة الى أن يلقي بذكريات تلك الفترة من تاريخ عمره .. أن يتقيأها هي وصورها ودمها وعفونتها على

« العرب والعلم »

هذا هو موضوع العدد الممتاز من

مجلة « العلوم »

جهد صحفي لم يسبق الى مثله من قبل

يصدر أول آب (أغسطس)

قارعة الطريق .. هنا بجوار هذا الكلب الكبير الهرم ، الذي كان يرمق صالح بنظرات الحذر ، وهو يسير بحذائه ، تحت الرصيف . ولاحظ صالح تهدل أذنيه الكبيرتين ، والتصاق خاصرتيه من الجوع .. وتوقف صالح لحظة لينعم النظر في وجه الكلب. وتوقف كذلك الكلب . وقبل أن ترق نظراته له وتعذب ، اشتد توتر قوائمه استعداداً للهرب . ولم يكن في الشارع آنذك إلا هذا السكران وهذا الكلب التعب العتيق . ونظر كل الى صاحبه طويلا ..

وشعر صالح أنه يريد أن يقول لهذا الكلب شيئاً . ترى كيف يكلمه ؟ وتحرك لسانه . ولكنه يجب ألا يتكلم .. بل أن يعوي .. يعوي .. آه يعوي على طريقة (أبي منصور) ذلك الرجل القصير الذي كان يرتدي الثياب العسكرية الصفراء دون صفتها . وكان يجول في (القاووش) الطويل ، في سجن القلعة ويصيح مقلداً أصوات الحيوانات تقليداً دقيقاً مطابقاً للأصل . وكان يحلو له غالباً أن يقلد صوت الكلب بعواء مر معذب ، يعرفه كل من ضرب كلباً جائعاً مستكيناً ..

ولأبي منصور هذا قصة تتلخص في أن خصاماً وقع بينه وبين قروي آخر في ضيعته على حب امرأة عاهرة . وكان أن استل الآخر سكيناً طويلا حادة ، مزقت بطن ابي منصور بضربة عرضانية ، انسكبت بعدها أحشاؤه ، وجمعها بيده الواحدة : بينما استجمع قوته الغريبة تلك اللحظة واستطاع أن ينتزع السكين من يد غريمه وأن ينهال بها عليه طعناً حتى أهرق دمه ، وسقط على الأرض . فانكب عليه أبو منصور ، وراح يأكل من لحمه .. أجل يأكل من لحمه ، وهو يعوي عواء شديداً ممزقا ولجنونه خففت المحكمة ، فيما بعد ، حكم الأعدام عليه بالسجن المؤبد. ورمته في (قاووش) ما في سجن القلعة.. يعوي فيه الى ماشاء الله !

* * *

وصالح يدرك الآن مدى التأثير الفعال الذي أحدثه في نفسه ، ومن ثم .. في انقلاب آخر في حياته ، أبو منصور وأحشاؤه التي لمها بيده ، وعواؤه المعذب الذليل ، وأكله لحم عدوه ...

ترى الى أي حد وصل بصالح حقده الذي علموه . وإلى أي حد هو يلم أحشاءه بيده .. وينتظر الفرصة لينقض على العدو الثاني ، على الطبقة الأخرى ، ويذبحها ويأكل لحمها ..

ومنذ أن خرج من القلعة ، بعد أن أفشى بعض أسرار المنظمة ، أسرار (الصنف) استرجع عقله وإرادته الخاصة .. وقبل أن يوصم بالخائن ، وذاك هو الأسم المعهود عندهم للمتمرد ، لانسان له مشكلة خاصة ، غير التي يعممونها بأمر ..

ونظر الى الكلب ، واندفع صوته بعواء حاد بشع ..

ومرت دورية أمن في تلك اللحظة ، وشاهدوا سكراناً يعوي وقبالته كلب آخر يجيبه بالعواء !

وأمسكه أحدهم وصرخ به : ألا تعلم أنك بعربدتك تستحق السجن الليلة. ؟

وسخر صالح بنفسه من هذا الصعلوك . إنه يسمي عواءه عربدة ..

أليست هذه سلطة أخرى . !

وجمع صالح بصقة كبيرة في فمه وقذفها بوجه الشرطي ، وهو يتصور بكل وضوح ، ودونما سكر أو دوار ، عودته الى القلعة ، والى قاووش ابي منصور. لكم لديه رغبة جامحة لأن يراه ثانية ..

وكان الفجر قد اشرق ، وأطفئت الأنوار الفضية . وبدأت الزواحف تدب في الشارع الطويل ...

دمشق — مطاع صفدي

دار مكتبة الحياة

تسير من نجاح الى نجاح

فتوالي اصدار مجلدات كتاب :

الاغـــــاني

لابي الفرج الاصبهاني

على شكل أجزاء متفرقة ، وقد اتمت طبع ١٤ مجلداً من اصل ٢١ ، وقامت بتجليد قسم كبير منها تجليداً انيقاً ليسهل الاحتفاظ بهذا الإرث العربي اللازم لكل باحث.

كتاب :

الاغـــــاني

لابي الفرج الاصبهاني

نفحة من الادب العربي الخالد ، وتراث قيم ، وتأريخ للحركات الادبية ، والشعراء والمغنين .

كتاب يتوّج كل مكتبة

كما توالي الدار اصدار اقسام كتاب

لسان العرب

لابن منظور

هذا بالإضافة الى سلاسل الدار المدرسية الإبتدائية ، الحديدة في طريقتها ، الحديدة في اخراجها ، الحديدة في اناقتها ومطابقتها لمبادئ التربية ... ومنها :

القراءة الصحيحة ، الجغرافيا الصحيحة ، تاريخ لبنان الصحيح ، الحساب الصحيح ، دروس الاشياء الصحيحة ، القواعد العربية الصحيحة .

مكتبة الحياة - شارع سوريا

بيروت ، لبنان — ص. ب (١٣٩٠)